تجلّيات السيرة الذاتية في رحلة ابن معصوم المدني

Autobiographical Manifestations in the Journey of Ibn Masum Al-Madani

Dr. Shaima Khairy Fahim
Professor
University of Al-Qadisiyah
College of Education
Department of Arabic Language

د. شيماء خيري فاهم
أستاذ
جامعـة القادسيـة
كليـة التربيـة
قسم اللغة العربية

shymaa.fahim@qu.edu.iq

الكلمات المفتاحية: السيرة الذاتية، الرحلة، ابن معصوم المدني

Keywords: Autobiographi , the journey , Ibn Masum Al-Madani

الملخّص

تعدّ الرّحلة الأدبيّة من الأجناس الأدبيّة الكبرى؛ إذ تستوعب بين دفتيها أجناساً صغرى وأنواعاً أدبيّة، تتآلف فيما بينها، لتجسّد نص الرّحلة، ومن أكثر الأجناس الأدبيّة ظهوراً فيها السيرة التي تجسّد حياة مؤلفها في مدد مختلفة، وفي أماكن متغيّرة يظهر عن طريقها خلجاته الذاتيّة وانطباعاته عن المكان، وهذا ما يحاول البحث الكشف عنه عن طريق استقراء تجليات سيرة ابن معصوم المدني في رحلته الموسومة بـ(سلوة الغريب وأسوة الأديب) التي يسجل فيها رحلته من المدينة المشرفة إلى الهند، واستقراره فيها لمدة زمنية؛ استجابة لرغبة والده في الارتحال إليه؛ لأنّه تقلّد وظيفة في الهند كانت سبباً في إجبار عائلته للحاق به، ولم يكونوا راغبين في ترك الديار المقدّسة التي كانت موطنهم المألوف.

Abstract

The literary journey is considered one of the major literary genres, as it contains between its pillars minor and literary genres that are composed to embody the text of the journey and one of the frequently used literary genres is the autobiography. This literary genre presents the life of its author at different times and in changing places, and it also reveals the authors' inner feelings and impressions of the place. This research attempts to reveal the manifestations of Ibn Masum Al-Madani's journey in his *Salwat al-Gharib and Suwat al-Arib* in which he records his journey from Al-Medina to India and his residence there for a period of time in response to his father's desire to move to him because he held a job in India. He forced his family to follow him, and they were unwilling to leave the holy land that was their familiar home.

تجليات السيرة الذاتية في رحلة ابن معصوم المدني

مدخل: (السيرة والرّحلة الأدبية):

تتشكّل السيرة الذاتية في الرحلة الأدبيّة بطريقة إخباريّة مرة ـ تنظم أخبار المؤلف وتجاربه التي يريد تقديمها للقارئ بطريقة أدبية تعبّر عن محطات حياته في أماكن مختلفة ـ وبطريقة تفسيريّة تعليليّة مرة ثانية ـ ليبيّن عن طريقها التقلبات والأزمات التي تعرض لها، ويوضح الحقيقة كما يراها هو، مستعرضاً في ذلك حبّه للعلم ونظمه للشعر وشغفه بعرض الأخبار والأحداث التي تدلّ على سعة ثقافته، وتنوّع مشاربه.

فالسيرة الذّاتيّة هي "حكي استعاري نثري يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصّة"(لوجون،١٩٩٤، ٢٢). والسيرة لا تكتب إلّا بعد اكتمال التجربة الذاتية ونضجها، فتصبح نوعاً من القلق الفني في نفس صاحبها، وهذا ما يجعله يسعى إلى كتابتها وإيصالها للقارئ (ينظر عباس ،١٩٥٦، ١٠٢)بطريقة النّص المرجعي والوقائعي؛ لأنّها تقول ما حدث وتهيئ للصدق، وهي لا تخلو من غايات معلنة، وأخرى مضمرة كانت سبباً في الكتابة، منها التبرير، والدفاع، والتنفيس، والعبرة، والاعتبار، والإحساس بالقيمة، والتذكّر، والاحتفاء بالذات، وإتاحة الفرصة لرواية قصتها، والتأكيد على فرادتها عن طريق عرض زوايا وحقب مفصلية في تاريخها (سعيد٢٠١٧، ٢٩-٢٨).

والرّحلة من أكثر الأجناس الأدبيّة استيعاباً لمفاصل السيرة الذاتية ومكوّناتها؛ لأنّها تضمّ تجارب الرّحالة وخبراتهم ومشاهداتهم في الأماكن التي ارتحلوا إليها، وأقاموا فيها مدّة من الزمن، وقاموا بـ "تشكيل لنص ذاتيّ/ شخصي بخصوص الأنا والآخر... يتبيّن متكيفاً في شكلٍ معيّنٍ للتعبير عن رؤية معيّنة انطلاقاً من خطاب مفصح عنه في البداية أو مضمر في تضاعيف السرد والوصف والتعليقات" (حليفي ٢٠٠٢، ٤١).

فالرّحلة في العمق هي سيرة ذاتية تتجسّد فيها الذات عن طريق الجهاز المعرفيّ للرّحالة وطريقة فهمه وصياغته ومصادراته وهي أشياء تذوت عباراته المتعلّقة به مباشرة أو بما هو غيري خارجيّ عن الذات، فالأنا في الحالتين تتموقع في ملتقى منحنيات نفسيّة وتاريخيّة ومعرفيّة (ينظر حليفي ،٢٠٠٢، ٥٠)

فالسّرد الرّحلي يظهر الذات وهي "تعبّر عن مواقف، عن وجهات نظر كما تكشف عن إحساسات وانفعالات وجدانيّة، فشكلها في قوالب لغويّة خاصّة وهي تسرد الأحداث والوقائع (جبار،٢٠١٧، ٣٦).

فالرّحلة تكشف عن أجزاء من سيرة الرّحالة وهو ينتقل من مكان إلى آخر، فيسجل انطباعاته الذاتية عن ذلك المكان ويستبطن مشاعره الذاتيّة لحظة وصوله ومعايشته للمكان

وساكنيه، وهذه المعايشة تهيئ للرّحالة معرفة واسعة بالعوالم التي يمرّ بها، وحاول نقلها إلى المتلقي بمرآته الذاتية، وهذا ما يجعل التلقّي مختلفاً من وصفٍ لآخر، بحسب التسجيل المعرفيّ الذي ينقله الرّحالة.

فتداخل الرّحلة والسيرة بعدّهما نصّين مرجعيين يدعيان الإدلاء بخبر حول الواقع المشار إليه (ينظر لوجون ،١٩٩٤، ٥٢)، ويشكّل السّفر مكوناً رئيساً فيها؛ إذ يقسم على محطّات في كل محطّة يقف ليصف المئات وما فيه بحسب أثر المكان في نفسه، وقد توزّعت الأماكن بين البرّ والبحر، فرسمت الواقع الذي عاشه بتقلّباته المختلفة، وبأصواته المتعددة الشاهدة على مدّة من حياته.

١. المرافقات النّصيّة:

وهي عتبات النّص، تتمثّل بالعنوان الرئيس والعنوان الثانوي واسم المؤلف ومقدمته التي شكّلت نصّاً موازياً حمل ملامح سيرية، فهي مداخل "تجعل المتلقي يمسك بالخيوط الأوليّة والأساسيّة للعمل المعروض... وعبرها نقتحم أغوار النّص وفضاءه الرّمزي والدلاليّ"(حمداوي ،١٩٩٧، ١٠٢). فالعنوان الرّئيس (رحلة ابن معصوم المدنيّ) حدّد جنس الكتابة أولاً، ونسب الرّحلة إلى صاحبها ثانياً، وهذا العنوان هو من عمل محقق الكتاب وناشره. أمّا العنوان الثاني (سلوة الغريب وأسوة الأريب) فهو من صنع صاحب الرّحلة، هذا ما يجده القارئ في مقدمة الرّحلة، فالعنوان الثاني هو العنوان الأصل الذي يشكّل حافزاً للقراءة لدلالته على فحوى النّص؛ إذ يحمل بين طيّاته تسليةً للغريب وقدوةً للعاقل الحاذق، فهو يجمع بين المتعة الآنية والمعرفة العلمية، وهذا ما فصله في المقدّمة؛ إذ يقول: "فأزمعتُ على أن أجمع ما وقع لي من ذلك رحلة تكون لأولي الألباب من ذوي الآداب نحلة، أثبتُ فيها ما وقفت عليه وما سأقف إن شاء الله تعالى جانحاً إليه إلى أن يمنّ الله سبحانه بالعود إلى الوطن، والأوب إلى العطن وأورد خلال ذلك من الطرائف المستطرفة والظرائف المستطرفة ما يروق النّواظر ويجلو صدأ الخواطر، وتقرط به المسامع، ويطرب له النّاظر والسامع، فإذا أشرق من أفق الكمال بدرها المنير وتفتق عن حجب الكمام زهرها النّظير سمّيتها:

سلوة الغريب وأسوة الأديب

ليطابق الاسم مسمّاه ويوافق اللفظ معناه وفيها أقول:

رحلتي المشتهاة تزري بالرّوض عند الفتى الأريب

فإن تغرّبت فاصطحِبها فإنّها سلوة الغريب

فها هي كالمُنية قد أنجحت لراجيها، أو العروس قد أُبرزت في ناديها فخذها بارك الله فيها" (المدني ،٢٠٠٦، ١٧-١٦).

فوصف الرّحالة لرحلته يؤسس أفق القراءة ولاسيما أنّ التقريض يشكّل حافزاً للقارئ، ليكشف عن صحّة هذا الكلام، ولإكمال هذا التصوّر عن طريق قراءة الرّحلة التي يحاول فيها تمرير المعرفة النّافعة التي تحاكي الأذواق المختلفة، وهذا يبيّن انفتاحها على السردي والوصفي والشعري والعجائبي بحسب ما تلتقطه عين الرّحالة، ليثبت ذاته في إحضاره إلى متلقّي الرّحلة ثمّ ينطلق إلى استحضار نصوص معضّدة من مصادر سابقة فرآها ترتبط بما يتحدث عنه بصلة ما لفائدة المتلقي وتوسيع معارفه أولاً، وليؤثّر مكانته العلمية وولعه بالتدقيق والتمحيص لما ينقل ثانياً، فعنوانه الأصل أوجز سبب التأليف ودواعيه بطريقة لا تخلو من الترميز والإيحاء.

وفي مقدمة الرّحلة يكشف ابن معصوم عن سبب ارتحاله والويلات التي جرّتها عليه هذه الرّحلة الإجبارية نتيجة لتقلّد والده وظيفة في الهند فانتقل من مكان الألفة والارتياح إلى أماكن مجهولة وغير مألوفة، لم يجد فيها الاطمئنان والرّاحة فيقول: "**ولقد منيت بكربة الغربة وتشعث الحال وعهد الصبا مخيّم ما همّ بالارتحال، وبليت بورود منهل البين الأكدر وباهر العمر مشرق أشرف على الكمال وما أدبر رمتني مرامي النّوى بجهدها وأبدلتني عن خير بلاد الله المشرّفة بأرض هندها، وناهيك بأرض شاسعة نائية وبلد أهلها كفرة طاغية وليس ذلك والله لطلب نائل أو بلوغ وطر... ولكن قضاءٌ حتمٌ، وأمر لزم، فأين المفرّ ... وكنت بعد أن نزلت على حكم القدر في تحمّل شقة البين وفارقت الأهل والوطن فراق الجفن للعين حريصاً أن لا يكون فعلي إلّا فعل امرئٍ جدَّ في طلب العُلى جدّه**" (**المدني ،٢٠٠٦، ١٥**). فتعالى السلطة الذاتية للمتكلّم في النّص السابق ولاسيما في حديثه عن مكان الولادة والنّشأة (المدينة المنورة)، وما تحفل به من قداسة وعلم وإيمان نقيض البلد المرتحل إليه، فخطابه الذاتي كشف لواعج النّفس الداخلية لفراقه الأهل والوطن، فمقدمة الرّحلة تشكل وعاءً معرفياً وإيديولوجياً يستوعب رؤية المؤلّف ونواياه وموقفه من العالم، فهي فضاؤه الفسيح الذي يمنحه إمكانية التعبير والتعليق والشرح (أشهبون،٩٢،٢٠٠٤).

فالرّحالة منذ بداية الرّحلة يفضّل الذات على الآخر؛ لأنّها نشأت في بلدٍ شريف مركز العلم والدّين خلاف الآخر الذي يسكن في بلد يعمّه الكفر والظلم؛ لذا نراه في نهاية النّص يظهر ذاته المثالية التي تسعى إلى تحقيق جدّها وعلمها وتواجه أصعب الظروف وأقساها بالجدّ والاجتهاد، "فالفضاء الأجنبي يتيح للأنا إعادة اكتشاف ذاتها ويجعلها تعيد النّظر في هويتها وكيفية التعبير عنها" (الساوري ،٢٠١٤، ١٦١).

وابن معصوم اتخذ من كتابة رحلته وسيلة لتخفيف الغربة أولاً، وتقييد مشاهداته ثانياً وإيصال المعرفة إلى المتلقي ثالثاً، وبهذا تضمّنت جزءاً من حياته، وعرضت أفكاره ومعارفه ورسمت أحاسيسه في الأماكن التي حلّت فيها.

فمحور الفعل السير ذاتي في الرّحلة تجلّى في "تطابق عنصر المؤلف/ السارد/ الشخصية والإيمان بالطابع الواقعي للموضوع المطروق في النّص" (لوجون ،١٤٩،١٩٩٤). فابن معصوم بدءاً من العنوان والمقدّمة وصولاً لنص الرّحلة أراد أن يكون لرحلته معنى عن طريق إعطاء ذاته شكلاً معرفياً ينقل عن طريق الخبرات والتجارب ووجهة نظره، ويدعو القارئ إلى تصديق ما يروي؛ لأنّه ينقل تجربة ذاتية عاشها في أماكن العبور والاستقرار.

فالرّحالة بوصفه وسيطاً بين القارئ والمغامرة يقدّم لذّة الجديد والغريب والتغرّب والمغامرة؛ لأنّه بطل هذه المغامرة قبل أن يكون ناقلها (ماي،١٤٩،٢٠١٧)، فيعيش القارئ أجواء تلك المغامرة التي وقعت للرّحالة من دون أن تتخلل واقعية المقروء؛ لأنّه متيقن بصحته وبعده عن الخيال.

٢. الترجمة:

من أهمّ مكوّنات السيرذاتية التي استطاعت الرّحلة امتصاصها وهضمها وتمثّلها، إذ يهدف عن طريقها الكاتب إلى تقديم نفسه، وتختصّ الترجمة بحديث الكاتب عن نفسه سيرذاتياً (ينظر العسل ،٢٠١٠، ٥٥،وسعيد ،٢٠١٧، ٣٢)، واقتصرت ترجمة ابن معصوم المدني في رحلته على شجرة الأنساب، وعلى أثر الهوية الهاشميّة في مسيرة حياته.

فيقول فيما يتصل بنسبه: "فأنا عليّ بن أحمد نظام الدّين بن محمّد معصوم بن أحمد نظام الدين بن إبراهيم بن سلام الله ابن مسعود عماد الدين بن محمد بن صدر الدين ابن إسحاق عز الدين بن عليّ ضياء الدين بن عربشاه فخر الدين بن أمير عز الدين أبي المكارم بن أميري خطير الدين بن الحسن شرف الدين أبي علي بن الحسين أبي جعفر العزيزي بن علي أبي سعيد النصيبيني بن زيد الأعشم أبي إبراهيم بن علي أبي شجاع الزاهد بن محمد أبي جعفر بن علي أبي الحسين بن جعفر أبي عبد الله بن أحمد نصير الدين السكين النقيب بن جعفر أبي عبد الله الشاعر بن محمد أبي جعفر بن محمد بن زيد الشهيد بن علي زين العابدين بن الحسين أبي عبد الله سيد الشهداء بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليهم السلام

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

(الفرزدق ،١٩٨٧، ٣٦٠) (المدني،٢٠٠٦، ٧٢)

يقدّم ابن معصوم للقارئ سلسلة طويلة من الأسماء لشخصيات لها مكانتها الدينية والعلمية ليصل بعد ذلك في نسبه إلى سيد الأوصياء الإمام علي (عليه السلام).

يرى جورج ماي أنّ الحديث عن النّسب في السيرة الذاتية لا يخرج عن "الفخر بالنّسب ولذّة التنقيب في الأرشيفات والإيمان بمقولات علم الوراثة" (ماي ،٢٠١٧، ١٩٨). وابن معصوم صرّح بالفخر وعضّد بالبيت الشّعري الذي يؤكّد فرادة النّسب والإيمان بمقولات علم الوراثة، فهي نتيجة صادقة لهذا النّسب.

وفي حديثه عن أجداده ذكر أنّ أول من انتقل إلى شيراز جدّه الرّابع عشر، واستقرّ فيها إلى أن قرّر جدّه الثالث (محمد بن معصوم) الانتقال إلى مكّة المشرفة بعد انتقال عمّه من شيراز (المدني ،٢٠٠٦، ٧٢) ، فابن معصوم في حديثه عن هذا الانتقال أشار إلى موطنه ونشأته وأثر المكان في نفسه وتربيته، فالترجمة تربط بين الهوية الشخصية داخل النّص وشخصية المؤلّف الواقعيّة التي يحيل عليها اسم العلم، ممّا يمنح الملفوظ السيرذاتي قيمة مرجعية تدرجه ضمن الملفوظات الواقعيّة أولاً، وتعلن عن تطابق الهويات الثلاث: المؤلّف، والرّاوي، والشخصية الرّئيسيّة، وذلك لأنّها تشكّل الموضوع الرّئيس للتلفّظ، ويعدّ هذا التّطابق ضرورياً في الملفوظات السير ذاتية الأجناسيّة (الطريطر، د.ت.،٢٣٦ ،الرواشدة ،٢٠١٩، ١٦٣) .

ولهذه الهوية أثرٌ آخر حرص ابن معصوم على ذكره في بداية رحلته، إذ يقول: "وهيهات مع شرف العلم عزّ المال ومع حرفة الأدب بلوغ الآمال ولاسيما من انتمى إلى بيت النّبوة، وارتدى رداء صيت الفتوة، فإنّ الدّهر أشدّ حقداً عليه وأسرع نهداً إليه

نحن بنى المصطفى ذوو محن يُجرعُها فى الحياة كاظمنا

عجيبة في الأنام محنتنا أوّلنا مُبتلى وخاتمنا

(ينظر الثعالبي،٣٦٠،١٩٨٣–٣٥٩ و الأبيات لأبي منصور نزار بن معد أبي تميم) (المدني ،٢٠٠٦، ١٤)

فابن معصوم مع كلّ ما يملك من علم وأدب وسمعة طيبة إلّا أنّه يعاني الإقصاء والتهميش، وذلك بسبب انتمائه الهاشميّ الذي جرّ عليه وعلى السابقين واللاحقين الابتلاء والمحن، فالهوية المحافظة التي يرسمها ابن معصوم استمدّت فكرها وفلسفتها من خارج الذات، فتشكّلت على وفق هويات قبليّة (داووق ،٢٠١٦، ١٨) ، إلّا أنّه يعتزّ بهذه الهوية، ويتحمل تبعاتها، ويكشف في الوقت نفسه عن التسلّط السياسيّ والقهر الاجتماعيّ تجاه المذهب الهاشميّ في الماضي والحاضر والمستقبل، معضّداً ذلك بالاستشهاد الشعري.

٣. اليوميات:

من أهمّ المكوّنات التي كان لها اشتغال في الرّحلة اليوميّات، وهي من المكوّنات الخطابيّة لأدب السيرة يتم عن طريقها رصد الأحداث اليوميّة أو هو وقائع أيام من دون أخرى بحسب أهمّيتها، يجتمع فيها الذاتي بالموضوعي، ولها أهمّية؛ لأنّها تربط سيرة حياة الرّحالة بأحداث يومه، فضلاً عن تقديمها صورة مشهديّة للحظات عاشها الرّحالة في رحلته (العسل ،٢٠١٠، ٦٧)، فهي "ضرب من ضروب كتابة الأنا يتعهّد فيه مؤلّف ما بأن يكتب يوماً بيوم على نحوٍ حميميّ يكاد يكون سرّياً ما يقع له من أحداث قريبة في الزّمن" (القاضي ،٢٠١٠، ٤٨٢) .

وقد شكّلت اليوميّات في رحلة ابن معصوم المدنيّ مكوّناً نصيّاً رئيساً في بناء سيرته استطاع عن طريقها استعراض مسارات الرّحلة أولاً وأثر هذه الرّحلة على مشاعره وردود فعله إزاء الأماكن التي نزل فيها ثانياً معضدّاً تلك المسارات بتواريخها الدقيقة؛ لذا كان "زمن السرد... زمناً خطّيّاً يسير في اتجاه واحد ولا تعتريه أية انكسارات أو مفارقات زمنية تتداخل فيها الأزمنة كما كان يعتمد الرّحالة السارد إلى قياس المسافات الفاصلة بين الفضاءات قياساً زمنياً" (جبار ،٢٠١٧، ٤٩). إذ يتم قياس المسافات بين المدن قياساً زمنياً بالأيام والأسابيع والشهور (جبار،٢٠١٧ ، ٤٩)، وهذا ما ستكشفه يوميّات ابن معصوم المدنيّ في رحلته.

يظهر صوت السارد ـ الرحلة ـ وهو يعلن خروجه من مكة، إذ يقول: "فكان خروجنا من مكة المشرفة ليلة السبت لستٍ خلونَ من شعبان المعظم عام ست وستين وألف وذلك بعد أن تملّيت من تلك المآثر الكرام وتلوت ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ [الإسراء:١] فسرنا على اسم الله والمودعون يذرّون الأعضاد على الجياد والمدامع تذري هواطل ومعها على أجياد وقد أذن جمع الشمل بالانصداع وعلمنا صدق قول القائل (بعد طول بحث لم أعثر على قائله وأظنه للرحالة) :

ما خلق الله من عذابٍ أشدّ من رفقة الوداع

... فسلكنا طريق اليمن الميمون متوجهين نحو ذلك القطر المأمون وسرينا نقتحم مهامه وقفارا، ولا نملك للدموع كفافاً ولا للقلوب نفارا نجوب جيوب تلك الليلة الدهماء ونخبط خبط عشواء في تلك الفلاة الهيماء إلى أن أسفر الصباح، فنزلنا بحمى هنالك مباح يقال له البيضاء قد نشر محله راية سوداء كأنّه لم يُنبت قط نجمة خضراء فقلنا فيه ذلك اليوم وهيهات أن يجنح طرف إلى نوم وفي هذا المنزل أقول:

ولقد حللت من المنازل وادياً محل الجوانب اسمه البيضاء

فرحلت منه وقلت للركب ارحلوا عنه عليه الرّاية السوداء

فارتحلنا منه إلى السعدية وتبوأنا ظلالها وإن كانت غير نديّة وهي ميقات اليمن بحذاء (يلملم)... ومنها فارقنا المشيعون وأخذوا يودّعون القلوب من الوجد ما يودعون فعمّ الغم وشمل وانقرف جرح لم يكن اندمل" (المدني،٢٠٠٦، ٣٨-٣٤) .

وضع ابن معصوم قارئه في فضاء التصديق عن طريق أخباره عن نفسه ـ بوصفه ـ فاعلاً ـ ونقطة انطلاقه وتاريخه، فتوزع حديثه بين الإخبار عن لحظة خروجه وما رافقها من مشاهد التوديع أولاً، واستبطان مشاعره الداخليّة التي تجسّدت في ألم الفراق وحزن الابتعاد عن الأهل والوطن ثانياً.

تشكّل اليوميّات بنية أساسيّة في رحلته لعنايته بتصوير مسارات الرّحلة وفضاءاتها بدقة، ممّا يجعل القارئ يعيش صورة مشهديّة لتلك الفضاءات، من ذلك وصفه لرحلته في البحر، ففيها يقول: "فجنحنا إلى ذلك البحر المتقارب وامتطينا غارب القارب فلمّا أقلعت السفينة عن المرسى ودجى ليل الهموم وأغسى وجعلت تطير بلا جناح يقودها القضاء المبرم وتزجيها الرّياح كأنّها سهم فارق وتره أو حكم أمضى الله قدره ترتفع تارة وتنخفض أخرى، وتميس طوراً كأنّها لا تعقل سكراً... ثمّ لم تزل السفينة ترتفع بنا وتنخفض وترتعش، وتنتفض وقد بلغت النّفوس الحلاقم وتجرّعت من البحر العلاقم، حتى شارفنا بقعة من الأرض حقيرة الطول والعرض فجنحنا إليها ونزلنا عليها وأرسينا بها ليلة وقد عادت الحال حويلة وودنا لو صار البحر دجيلة فلمّا شعشع الصباح، أهابا بالسفينة داعي الرّياح فعُلق الشراع، وقد راع من فراق البقعة ما راع ثمّ غدونا نخوض تلك اللجج ونخاطر بالمهج حتى أشرفنا على بندر جازان فقصدنا النّزول به فلم يوافق أهل السّفينة لاغتنامهم موافقة الريح، ويقال إنّ بحر ساحله مغاص يخرج منه اللؤلؤ لكنّه ليس يجيد وقد يقذف البحر إليه العنبر" (المدني،٢٠٠٦، ٥١-٤٩ ،وقد وصف البحر و ما فيه من مخاطر في صفحات عدة ينظر ٥٤، ٥٨، ٥٩، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٢٥).

فالصورة المشهديّة للبحر التي قدّمها الرّحالة ـ السارد ـ صورة سلبيّة عنيفة أظهر عن طريقها المخاطر التي تعرض لها أثناء رحلته ليؤكّد للقارئ أنّ محنته كانت كبيرة تجسّدت في الأهوال والمخاطر التي عاشها أثناء رحلته وشعوره بالغربة والاغتراب النّفسي، فنلحظ فاعليّة الأنا وتحرّكها بدءاً من ركوب السّفينة وإقلاعها وترقّب المخاطر والنّزول للاستراحة والرّكوب ثانية، فالرّحلة "نص مذوت وخطاب يضيء عدّة بؤر من ضمنها (أنا) الرّاوي باعتبار السّرد الرّحلي سيرة ذاتيّة شذرية محدودة في الزمان والمكان، إنّها مشهد سيري ذاتي وبيوغرافيّ يخص لحظة زمنيّة مؤطّرة بسفر (ذات) تحمل أحلامها وتطلعاتها ومعارفها وقيمها" (حليفي ٢٠٠٢، ٢٨٠-٢٧٩).

فابن معصوم في تسجيله ليوميّاته لا يقف عند الاعتيادي والمألوف، وإنّما يختار المؤثر؛ ليحقّق القصدية الإخباريّة التي تجعل القارئ في مسار الرّحلة والقصدية التأثيريّة التي تهدف إلى التأثير في القارئ وإقناعه بصدق رواية الرّحالة.

واحتقبت يوميّاته بأوصاف الأماكن التي أقام فيها مدّة من الزّمن قبل لقائه بوالده ووصوله إلى مكانه، ليضع القارئ أمام صورة تفصيليّة لمشاهداته المنقولة بأحاسيس الدّهشة والغرابة، من ذلك قوله في وصف المكان الذي نزل فيه: "ثمّ نزلنا البندر وهو بندر جبيتابور... وكان وصولنا إبّان الرّبيع بالديار الهندية فألفيناه قد نشر مطارفه وأبرز تالده وطارفه لا تقع العين إلّا على رياض خضرة وغياض يانعة نضرة ... فأصبحنا نستنشق روائح الأزهار،

ونختال في رياض محفوفة بحياض وأنهار، ونتملّى بتلك الخمائل، ونتنزّه ما بين غصن معتدل إلى غصن مائل، والصوارح تخطب على منابر أغصانها، وتبدي فنون نغماتها على أفنانها... فأقمنا بهذا البندر ثلاثة أيّام، ثمّ انتقلنا إلى بندر أعظم منه... فسرنا في الخور بين ذينك الجبلين حتّى وصلنا إليه وهو قرية لطيفة... وهو صقع عظيم ليس في أرض الهند أكثر خراجاً منه لحسن ربيعه فإنّ المطر يكون فيه ستة أشهر لا ينقطع ليلاً ولا نهاراً بخلاف سائر الهند... فإنّ مدّة المطر فيها لا تزيد على أربعة أشهر ورأينا بهذا البندر أشياء لم نكن نراها من قبل، منها الطائر المعروف بالطاووس... ورأينا في هذا البندر من الببغاي الخضر ما لا يحصى... وممّا رأيناه بهذا البندر من الحيوانات الغريبة سنانير الزّباد الواحد منها السنّور الأهلي لكنّه أطول جثّة وذنباً ولونه إلى السواد أميل، والزّباد فيه شبيه بالوسخ الأسود اللزج، ذفر الرّائحة يخالطه طيب حسن يوجد في إبطيه وفي باطن أفخاذه وباطن ذنبه وحوالي دبره، ولم يبرح جماعة يلاعبونه ويحرّكونه حتى يعرق فيسيل الزباد فتمتد له ملاعق الفضّة ويؤخذ ويسمّى هذا السنّور الرّباح... ورأينا بهذا البندر عيناً جارية وماؤها في غاية الحرارة، فيقال: إنّها تمرّ على معدن الكبريت فيفيدها هذه الحرارة، ولقد كنّا نشمّ منها رائحة الكبريت... ومن الغرائب ممّا رأيناه بهذا البندر وهي عين على قلّة جبل تنبع وتجري في السنة ثلاثة أيّام ثمّ تغور وتنقطع وكانت أول دخولنا البندر منقطعة ثمّ بعد إقامتنا هنالك شهرين قيل: نبع ماؤها فقصدناها للتفرّج وقصدتها الهنود للعبادة، وكنّا قصدناها قبل ذلك لما وصفت لنا، فرأيناها غائرة ومجراها يابساً وقد اتخذت الهنود عندها حياضاً، ولمّا نبع الماء امتلأت تلك الحياض وهو ماء عذب برّاق ويحكى مثل هذا كثير إلّا أنّ للعيان موقعاً ليس للسماع... ورأينا بهذا البندر معبداً عظيماً لله نود فيه أصنام من ذهب وفضّة مصوّرة على صورة الإنسان وصورة الحيّات، وقد صوّر حولها من الصّخر الأسود تقصده كفرة الهنود من الآفاق وتنذر له النّذور ورأيناهم يسجدون للأصنام التي فيه والسرج فيه ليلاً ونهاراً لا تطفأ وله خدم وحجاب وأتباع... وبالجملة فإنّ الهنود لهم مذاهب ومعتقدات مختلفة لا يدركها الحصر، وقد رأينا منهم من يعبد النّيرين، ومنهم يعبد الأشجار، ومنهم من يعبد الأنهار، ومنهم من يعبد الأصنام" (المدني ،١٤٥،٢٠٠٦-١٢٦، و المزيد ينظر ١٥٠ ،١٥١ ،١٥٢ ،١٥٣ ،١٦٣، ١٦٤، ١٧١) .

نجد حضوراً مكثّفاً لضمير الأنا بصيغة الجمع، وهذا يؤكّد امتلاك المؤلّف لناصية الكلام، وتذويته للمشاهدات التي ذكرها ومعايشته للأماكن التي أقام فيها، فالمشاهدة العيانيّة عنده هي أساس المصداقيّة، لا السماع، هذا ما أكّده بقوله: "ويحكى مثل هذا كثير إلّا أنّ للعيان موقعاً ليس للسماع" (المدني ،٢٠٠٦، ١٤٢). وإنّ وقوفه على ديانتهم وأماكن العبادة عندهم واختلاف مذاهبهم لا يخلو من استغرابه وامتعاضه من الآخر، وعدم تقبّله للمختلف دينيّاً وثقافيّاً.

وقد سلك ابن معصوم في نقل مشاهداته اليوميّة على المتتاليات الوصفيّة التي تنقل قارئ الرّحلة إلى تلك الأماكن وما فيها من نبات وحيوان ومياه والمعايشة الحقيقيّة، فشيّد صورة إيجابيّة لكل ما يتعلّق بالطبيعة وصورة سلبيّة لما يتعلّق بديانتهم، وإن كانت غير مباشرة، ولكن نقلها لا يخلو من تمييز واختلاف عن الأنا، ولا سيما في استعماله مفردة (الكفرة).

وقد اختلفت لغة الوصف بين الصورتين، ففي الصورة الإيجابيّة تميّزت لغته بالشعريّة خلاف الصورة الثانية التي تميّزت بالنّقل التقريري؛ لما يشاهد، فصوت ابن معصوم هو المهيمن على صوره الوصفيّة السابقة الذكر، وقد منحه ذلك قدرة على استحضار بعض المشاهدات والسكوت عن أخرى، ليعضّد الوظيفة الإخباريّة التي تربط المؤلّف بالمتلقي، فيخبر الأول بالرّحلة التي قام بها الهند، ليكوّن الأخير تصوّراً عن الرّحلة ومساراتها، ولكن بالشكل الذي قدّمه الرّحالة.

وقد حرص ابن معصوم على سرد لحظة وصوله بتفاصيلها المشهديّة الدقيقة، وما ظفر به من استقبال مشرف يدل على علوّ منزلته عند الآخر ومكانته المائزة، فيقول: "ثمّ لم نزل نصل المسير بالسُرى ونقترع الآكام والذرى حتّى طوينا جملة من المراحل وقطعنا الخصب منها والماحل فكان آخر منزل نزلناه، وأمطنا شعث السّفر وأزلناه قصراً لبعض خدام مولانا السلطان... فبتنا به ليلة نراقب تشمير الليل ذيله فلمّا أسفر الفجر عن صبح يوم الجمعة المبارك بقدرة الله تعالى وتبارك لثمان بقين من شهر ربيع الأول قضى الله بانقضاء مدّة هذا السّفر المطوّل، فسرنا وقد استقبلنا الموكب ما بين راجل وراكب حتّى وافينا قلعة (كلكُندة) نصر الله صاحبها وجنده وهي دار الملك الخطير ومقرّ المنبر والسرير وغاية الجهة التي قصدناها ونهايتها التي أردناها فوردناها فكانت محطّ رحالنا وإليها مطارح آمالنا واجتمعنا بالوالد في ذلك اجتماعاً لم يخطر ببال في يقظة ولا نوم، فأقرّ الله به العين وأراح من مشاق السّفر ومتاعب البين وبها ألقينا عصا الترحال والحمد لله على كل حال" (المدني ١٧٥، ٢٠٠٦-١٧٤).

إنّ تصوير ابن معصوم لأيّام رحلته وفضاءات الإقامة وربطها بتواريخها المتسلسلة جعلها تحتضن يوميّاته بدقة وتسرد سيرة السفر من المبدأ إلى المنتهى، ليكون الوصول واللقاء بوالده تتويجاً وإزاحة لكل ما لاقى من مخاطر وتعب أثناء مدّة الرّحلة.

فابن معصوم فاعل ومشارك ومنتج للنّص، فهو راوية ومجرب وموضوع التجربة سجل يوميّاته بأفعالها وحركاتها، فهو بطل الرّحلة سار على وفق خطّة رحلية تحكّمت في النّص كلّه وتأطّرت بالزّمن وبعض التقرير (حليفي ٢٨٤، ٢٠٠٢)، كل هذا ساعد على خلق الانفعال والتأثير بوساطة السّرد المشهدي الذي تشكّل بتقنيات عدّة، ليحقّق فعل الكتابة والتأثير.

وبعد وصوله واستقراره بجوار والده ذكر لنا لقاءه بأعيان العصر وعلماء الزّمان، فقال: "واجتمعت في حضرة الوالد بجماعة من الأعيان ورؤساء العصر والأوان ممّن حلى بهم الدّهر جيده وملكهم الفضل طارفه وتليده فاكتحل برؤياهم جفني القريح وهبّت بعرف ريّاهم لكتابي هذا أطيب ريح" (المدني ،٢٠٠٦، ١٨٨).

حرص ابن معصوم على ذكر لقائه بالعلماء وحديثه عنهم والترجمة لهم (ينظر المدني ،٢٠٠٦، ١٨٨، ١٩٥، ٢٠٥ ،٢١٤)، وهذا يبيّن منزلة العلم عنده وحرصه على الإفادة منه في يومياته إلى جانب استعراض معلوماته في الترجمة، والاستشهاد بأشعارهم ونتفٍ من علومهم، ليؤكّد سعة معارفه وتنوّع ثقافته ومنزلته عندهم، ولاسيّما أشعارهم في مدحه وأجوبته الشعريّة على مدائحهم، فانفتحت رحلته لاستيعاب تلك الأشعار من دون أن تتعثّر الحركة السرديّة فيها.

وأنهى رحلته بالدّعاء، إذ يقول: "والله أسأل أن يسنَّ بالعود على أحسن الوجوه ويوفق لإتمام هذه الرّحلة على أكمل وجه، وهنا انقطعت بنا المادة فوقفنا على هذه الجادّة سائلين الله سبحانه وتعالى أن يرزقنا الأوب إلى حرمه ويقضي لنا بالرّجوع إلى جوار بيته المحرّم بجوده وكرمه" (المدني ،٣٠٣،٢٠٠٦-٣٠٢).

وأشار ابن معصوم في نهاية رحلته إلى زمن تدوينها قائلاً: "كان الفراغ من هذا السّفر (أسلوب الغريب وأسوة الأريب) يوم الجمعة لليلة بقيت من جمادي الآخرة سنة خمس وسبعين وألف" (المدني ،٣٠٣،٢٠٠٦)، وهذا يبيّن طول إقامته بالهند إذا قارنّا بين زمن الانطلاق الذي وافق سنة ١٠٦٦ وزمن نهاية الكتابة، فالفارق بينهما عشر سنوات، فالرّحلة أُنجزت بعد وصوله للهند بمدّة زمنية ليست بقصيرة.

الخاتمة

- أظهرت رحلة ابن معصوم المدنيّ تفاعلاً واضحاً مع سيرته، ولاسيّما سيرة سفره وما تعرّض له في محطّات العبور من مواقف إيجابيّة أو سلبيّة نقلها للقارئ بهدف الإخبار أولاً والتأثير ثانياً.
- من أهمّ المكوّنات الخطابيّة للسيرة الذاتيّة في رحلة ابن معصوم المدنيّ الترجمة، وقد اقتصرت على شجرة النّسب التي تدلّ على اعتداده بنفسه وبنسبه وبمنزلته.
- شكّلت اليوميّات الجزء الأكبر من سيرته، وقد قامت على مشاهداته العينانية ومعايشته لأمكنة العبور والوصول، فوصفها بدقة ولا سيما الغريب وغير المألوف، لينقل للقارئ معارفه، ويجعله يعيش تجربة الارتحال معه.
- شكّل ضمير الجمع المحيل على المألوف الحضور الأكثف في الرّحلة، وهذا يشير إلى حركته برفقة جماعته في حلّه وترحاله.
- اقتصرت رحلته على مسارين (العبور والوصول)، وافتقدت إلى مسار العودة؛ لأنّها كُتبت وهو في الدّيار الهنديّة راجياً العودة إلى دياره.

ثبت المصادر

- أشهبون، عبدالملك ،٢٠٠٤،خطاب المقدمات في الرواية (التنوع و التشكيل و الوظائف الفنية) عالم الفكر ،الكويت ،مج٣٣، ع٢.
- الثعالبي ،أبو منصور ،١٩٨٣،يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ،تحقيق مفيد محمد قميحة ، دار الكتب العلمية ،ط١، بيروت- لبنان .
- جبار، سعيد ،٢٠١٧ ،خطاب الرحلة – الذاكرة و آليات إنتاج الدلالة -،رؤية.
- حليفي ،شعيب ،٢٠٠٢،الرحلة في الأدب العربي – التجنيس ،آليات الكتابة ،خطاب المتخيل -،الهيئة العامة لقصور الثقافة .
- حمداوي ،جميل ،١٩٩٧،السيميوطيقيا و العنونة ،مجلة عالم الفكر ،الكويت ،مج٣٥،ع٣.
- دواق،الحاج،٢٠١٦، الدين و الهوية -بين ضيق الانتماء و سعة الابداع ،مؤمنون بلا حدود.
- الرواشدة، فاطمة ،٢٠١٩،السيرة الذاتية في الأندلس-دراسة في البنية و الرؤية -،دار غيداء ،ط١،عمان
- الساوري ، بوشعيب،٢٠١٤،صورة الآخر في رحلات عربية من القرن العاشر الميلادي الى القرن الواحد و العشرين، النايا ،ط١،سوريا .
- سعيد ،علي،٢٠١٧ ،السيرة الذاتية العراقية الحديثة -خصائص النوع و البناء السردي - ،دار عدنان ،ط١،بغداد- العراق .
- الطريطر،جليلة ،د.ت،مقومات السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث -بحث في المرجعيات - ،مركز النشر الجامعة .
- عباس ،د.إحسان،١٩٥٦،فن السيرة ،دار الثقافة ،بيروت-لبنان .
- العسل ،د.عصام ،٢٠١٠،فن كتابة السيرة الذاتية -مقاربات في المنهج - ،دار الكتب العلمية ،ط١،بيروت- لبنان.
- الفرزدق ،ديوان الفرزدق ،١٩٨٧،تحقيق علي فاعور ، دار الكتب العلمية ،ط١،بيروت - لبنان.
- القاضي ، د.محمد ،٢٠١٠،معجم السرديات ،ط١،بيروت-لبنان .
- لوجون ،فيليب ،١٩٩٤،السيرة الذاتية الميثاق و التاريخ الأدبي ،ترجمة عمر الحلي، المركز الثقافي العربي ،لبنان .
- ماي، جورج ،٢٠١٧،السيرة الذاتية ،تعريب أ.د.محمد القاضي ،أ.د. عبدالله صولة ،رؤية .

Sources and References

- Abbas, Dr.Ihsan ,(1956) ,the art of biography , Beirut-Lebanon, Dar Al- thaqafa
- Alassal, Dr.Essam ,(2010), the art of writing an autobiography , Beirut-Lebanon , Dar Al kotob AL-ilmiya
- Al-farzdaq ,explained and edited by professor Ali faour, (1407/1978), Diwan Al-farzdaq, 1st edition, , Beirut-Lebanon , Dar Al kotob AL-ilmiya
- Al-Hilli, omar, (1994), Biography The charter and literary history , , 1st edition, , Beirut-Lebanon , Arab cultural center
- Al-madani , Sayyid Ali Sadr al-din ,Shaker Hadi Shukr , (1426/2006), The journey of Ibn Masum al- Madani or Salwat al-Areeb, 1st edition ,Arab house of subject
- Al-Qadi , Dr. Mohammed, (2010),Dictionary of narrative ,Beirut-Lebanon
- Al- Rawashideh , Dr. Fatima , (2019), Autobiography in Andalusia – A study in strucure and Vision, 1st edition , Amman
- Al- sauri , Bu shuaib , (2014), The image of the other in Arab travels From the tenth century AD to the twenty – first century , 1st edition , Syria , Al-Naya
- Al- Thaalby , Abo mansor , (1983), Yatemat Al –Dahar fi Mahasen Ahl Alasar, Beirut-Lebanon , Dar Al kotob AL-ilmiya
- Al-Treter, Dr. Jalelah, (W.D), component of autobiography , university publishing center
- Ashboun, Abdul Malik, (2004), Discourse on introductions to the novel (Diversity formation , and artistic function), vol.33, no.2, Kuwait ,World of thought
- Doaq, Alhaj ,(2016), religion and identity , between the narrowness of belonging and the breadth of creativity

- Halifi, shuaib ,(2002), The journey in Arabic literature-Naturalization , writing mechanisms , The Discourse of Imaginary, General authority for cultural palaces
- Hamdaui, Jamil , (1997), semiotics and tilting, Kuwait ,Alam Al-fikr magazine vol.35 no.3
- May, George O. , Arabization by prof Dr, Mohammed Al- Qadi and prof Dr. Abdullah Sola , (2017), roaya
- Saeed ,Dr.Ali,(1438/2017), The Modern Iraqi autobiography genre characteristics and narrive structure